عدل السماء

للأستاذ كامل محمود حبيب

— ٢ —

« ليت كل ذى عقل يؤمن بأن فى السماء عدلاً يهبط إلى الأرض فى غير انقطاع ! فما أشد حاقتك وغباوتك يا من تتناسى عدل السماء ! »

لقد زلت — يا رفيق — قريتك فأحسست بالوحدة وأنت بين أهلك ، واستشعرت الغربة وأنت فى دارك ، وعشت فيها أياماً فما رف إليك قريب من ذوى قرابتك ، ولا هفا نحوك واحد من أخوتك . وكيف يفعلون وهم قد لمسوا منك الجفوة والاستهانة والشح ، فما تلبثت نفسك أن ضاقت بالحياة وحيداً فى هذه القرية ، فثارت خواطرك ثورة عنيفة جيّاشة فبت دارك لأنك لم تجد فيها الراحة ولا المأوى ، بعتها — وهى كل ما تملك فى القرية — فعفيت على آخر أثر لك هناك ، مثلما مسحت على آخر خفقة من خفقات العطف والحنان حين اشتريت هذه الدار وأفزعت عنها أهلها ، إخوتك أنت ... ثم خرجت — وحدك — من الدار ومن القرية جميعاً . وانطوت الأيام فما عدت سوى ذكرى فى القلوب ، أو تاريخ على الألسن كان حديث القوم حيناً .

يا لعدل السماء ! لقد خرجت اليوم قسراً من الدار التى طردت منها بالأمس إخوتك فى غير شفقة ولا رحمة . وأرسل إخوتك الأعاهير نظراتهم فى إثرك وأنت تتوارى خلف الأفق ، وتعلقت بك أبصارهم ، وخفقت قلوبهم فى أسى ولوعة حين أيقنوا أنك أصبحت غريباً عنهم ، وتركت العبرات فى عيونهم لأنهم وجدوا لذع فقدك ، فقلوبهم ما تزال غضة نقية لم تشوهها المدنية ولا حجّرتها المادة ، وأزعجهم أن تخرج من القرية — وحدك — كاسف البال مضطرب النفس يرمضك الأسى ويحتك الهم . ولكن واحداً منهم لم يستطع أن ينطلق وراءك ليردك إلى أهلك خشية أن تلقاه فى غلظة أو تحدثه فى قسوة .

آه ، يا رفيق ، لو وجدت الرحمة إلى قلبك سبيلاً !

وعدت إلى المدينة ، إلى عملك الحكومى ، وما فى يدك سوى ما قبضته ثمناً لدارك وسوى ما فدحك من بث وشجن حين فقدت الأخ والصديق والقريب ، وحين لفظتك القرية التى ولدت فيها وترعرعت بين ربوعها ... لفظتك وقلبك يهفو نحو ملاعب الطفولة وأحباء الصبا ومسارح الشباب .

لشد ما غاظك — وأنت فى القرية — أن يتغافل عنك أهلك وأن يتجاهلوا وجودك وأن ينبذوك جانباً ، على حين قد جئت إليهم تريد أن تخطب الود ، وتكفر عن الخطيئة وتصل ما انقطع . ما ذا — يا ترى — طمس على قلوبهم فما نبضت بحب ولا خفقت بعاطفة ، وأنت ابن أبيك ، وأبوك كان فى الذروة خلقاً وجاهاً ، وهو قد عاش بينهم عمره الطويل فى العزة والمنعة والشرف يوقره الكبير ويحترمه الصغير ؟ ما ذا يا ترى ؟

وتراءى لك أن أهلك قد جفوك لفقرك ، وعافوك لرضك ، فعقدت العزم على أمر ، وأنت ما تزال شاباً فيك مسكة من قوة وبقية من نشاط .

وخلصت إلى عملك الحكومى تقضى فيه صدر النهار ، وإلى عمل فى شركة تجارية تقضى فيها صدر الليل ، وأنت بين هذا وذاك تعين عاسياً — زميلاً لك — على عمله لقاء أجر معلوم . واستمرت فى عمل مستمر متواصل يستغرق وسعك ويستنفد طاقتك ، وأنت فى شغل لا تجد من الغنا ولا تحس شدة الرهق ، فقلبك راض مطمئن ، تأخذ نشوة المال حين تجمعه وتحصيه ثم تدخره عسى أن تبلغ الغنى أو ترقى إلى الثراء فتكون بين أهلك وذوى قرابتك رجلاً .

وضنت بهذا الجهد — وهو ضخم — أن تبعثره نوازع الحياة أو أن يزيه بهرج المدنية ، فعاودك داء البخل والكزازة فتلمست مسكناً فى حجرة ضيقة من منزل حقير ، بأجر زهيد ، تقضى فيها ساعات نومك ، تقبل عليها فى هدأة الليل وتفزع منها فى بكرة النهار .

هذا المكان قذر وضيع تتراكم فى نواحيه الأوحال والأوساخ وتفوح منه رائحة نتنة ذفرة ، ولكنه لا يوحى إلى نفسك الغضاضة ولا يبعث فى قلبك التقزز . وماذا يضيرك وأنت تتوارى فى هذا الوكر عن الأبصار والقلوب ؟ ثم لجّ بك البخل وضربك

الشح فأصبحت لا تبالي أن تبدو أمام الناس في أحوال خَلِقة تزدريها النفس وتقتحمها العين ، ثم ضيقت على نفسك لا تحبوها إلا بالتافه الضئيل من الطعام ، ولا ترفه عنها ما تعاني من كلال ونصب ، ولا تخفف عنها ما تقاسي من عناء وسأم .

وتطاولك الإرهاق وسوء التغذية وانحطاط المسكن ، ولكنك ادخرت مالاً .

وعجبت أن ترى زملاءك في الديوان يتلقفون « الترقية » و « الدرجة » و « العلاوة » وأنت تنظر وتنتظر فلا تنال شيئاً . لماذا ؟ وأنت لا تهمل ولا تتكاسل ، تنطوي على عملك في دأب ونشاط وتنزل عند رأي (المدير) في غير تردد ولا نقاش تتمنى أن تنال عنده الحظوة ، وأن تبلغ منه الرضا ، ولكنك ما تبرح في مكانك منبوذاً في ناحية .

أما هؤلاء الذين يظفرون بالترقية والدرجة والعلاوة فما منهم من يؤمن بالعمل ، ولا من يرعى حق الوظيفة ، ولا من يعنى بالواجب ، فهذه أكداس من الورق تتراكم أمامهم فلا يعيرونها التفاتة ولا يأبهون لما بها ، ولكنهم يحنون رضا الحكومة ، ويستمتعون برحيق الوظيفة ، وأنت تنظر وتنتظر في غير رجاء ولا أمل ، فليت شعري لماذا ؟

وخُيِّل إليك أن السر هناك في حجرة المدير فذهبت تكشف من خبيئة هذا الأمر فما أعجزتك الحيلة ولا ضاقت بك الوسيلة ، وأنت رجل ذو ثقافة وعقل .

ورأيت الموظف يتملق (سعادة المدير) بأساليب أيسرها الإطراء والمدح ، ويتقرب إليه بوسائل أكرهها التذلل والتعبد ، والمدير يتقبل هذا وذاك في رضا وسرور — هذا سبيل وعر عليك أن تسلكه فما في طبيعتك أن تفعل . ولكنك رمت بما ترى حواليك وحار عقلك ، وآذاك أن ترى مَنْ هم دونك يتسلقون السلم في سرعة وسهولة ، وأردت أن تتذوق بعض ما يسعدون به . وسطعت في خيالك خاطرة أعجبت لها كل الخواطر السود في رأسك ، وهدأت لها أعصابك الثائرة ، فأنت قد عقدت العزم على أن تصل حبلك بحبل (سعادة المدير) فتتزوج من ابنته .

وزيّن لك خيالك الأمر ، فغداً — حين تتزوج من ابنة المدير — تصبح أنت صاحب الرأي في المكتب ، وصاحب السلطان في الديوان ، وصاحب الكلمة في المصلحة . واستبدت بك الفكرة فبعثت فيك النشوة واللذة ...

وذهبت إلى (سعادة المدير) تخطب إليه ابنته فربتَ على كتفك وأجلسك إلى جانبه وحياك ببعثه وانفتح لك باب حجرته وباب داره في وقت معاً ، وانحنى لك ساعيه وبوابه ، وهابك مرءوسوه وأعوانه ، واحتفل بك أهله وأقاربه ، ثم طلب إليك المهر فما تمهلت وما تعوق عن الآخر ، فجاءتك الترقية والعلاوة والدرجة جميعاً ، وابتسم (سعادة المدير) وابتسمت أنت أيضاً ولكن الأيام ...

فيا ليت شعري هل كان أبوك يستنزل سخط السماء على ابنه العاق حين كان يتمتم بكلمات لم تسمعها أذن ؟

وتمت المراسيم الأولى للزواج ، وجاء جهاز العروس بين فرح الأهل وبهجة الأقارب ، وانتهى كل شيء فلم تبق سوى أيام ثم تزف إليك عروسك السعيدة . وأردت أن تلقي بنفسك في غمرات العمل الشاق لتدخر مالاً تنفقه عن سعة في شهر العسل ، ولكنك أحسست بقوتك تتقوض وبصحتك تنهار ، فانطلقت تطب لرشك فأرسلك الطبيب إلى مصحة حلوان .

وأنت الآن — يا رفيقي — هناك في مصحة حلوان لا تجد الصديق لأنك خاصمته منذ زمان ، ولا تجد المال لأن المدير قد استنزف كل مالك مهراً لابنته ثم طار عنك ، وتزوجت ابنته من مال دفعته أنت مهراً لها .

أنت هناك — يا رفيقي — تنتظر النهاية وحيداً لأن أباك استنزل سخط السماء على ابنه العاق . فيا ليت شعري .. يا ليت !

كامل محمود حبيب

من مؤلفات نقولا الحداد العلمية

	ص
عالم الذرة أو الطاقة الذرية Atomic Energy	٢٠
هندسة الكون بحسب ناموس النسبية Relativity	٣٥
فلسفة التفاحة أو جاذبية نيوتن Newtons Gravitation	١٠

تطلب هذه الكتب من دار الرسالة ومن المؤلف في ٢ ش البورصة الجديدة ومن بعض المكاتب خالصة أجرة البريد